سوريا
المعرفة
العدد رقم 331
1 أبريل 1991

الدراسات والبحوث

البيان والتبيين
في ضوء اللسانيات الحديثة

الدكتور مازن الوعر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ـ لمحة عن حياة المؤلف(١) :

هو ابو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) . ولد في البصرة حول عام ١٥٩ هـ ٧٧٦ م وتوفي فيها عام ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م . عاش الجاحظ نحو ستة وتسعين عاما كان مشوه الخلق جاحظ العينين فانصرف عنه الناس وعني هو بصناعة الكتب .

والجاحظ طبقا لما جاء في دائرة المعارف البريطانية وكتاب (الفن ومذاهبه في النثر العربي) لشوقي ضيف هو من أصل غير عربي ... والارجح انه يرجع الى اصل أثيوبي ـ حبشي . نشأ في البصرة نشأة متواضعة إذ انه كان يبيع الخبز والسمك .

(١) الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) البيان والتبيين ج١ . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (١٩٤٨ ـ ص ٥ ـ ١٤) دار الجيل ـ بيروت .

وقد ذهب الى المربد يسمع من الاعراب الفصحاء ويختلف الى حلقات العلماء في المسجد الجامع . واقبل على قراءة كل ما ترجم من الثقافات الاجنبية حتى انه اصبح اشبه بدوائر المعارف .

كان الجاحظ من المعتزلة تلك المدرسة التي عرفت بكثرة الجدل والحوار وسعة ثقافة اصحابها وفصاحتهم وبلاغتهم .

استوت شهرة الجاحظ في القرن الثالث وهذا ما جعل المامون يطلب اليه ان يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها . وهذا جعله يتصل بكبار رجال الدولة العباسية .

مرض الجاحظ في اواخر حياته مرضا شديدا فاصيب بالفالج والنقرس فاضطر الى ملازمة بيته والتفرغ للكتابة والتاليف . واغلب الظن ان كتاب (البيان والتبيين) هو نتاج هذه المرحلة المتاخرة .

وبعد مرض شديد انهالت الكتب عليه يوما وهو جالس بينها يقرا فقضت عليه وهكذا ذهب ضحية اثر الاصدقاء واعزهم لديه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ ــ مضمون الكتاب(٢) :

كتاب الجاحظ يتميز بانه طرح موضوعات متنوعة ومختلفة ... وقد عالج الجاحظ هذه الموضوعات في اطار الابعاد التالية : ١ ــ الواقعية ، ٢ ــ الاستطراد ، ٣ ــ التلوين الصوتي ، ٤ ــ التلوين العقلي .

إن اهم الموضوعات التي عالجها الجاحظ هي التالية :

١ ــ البيان والقواعد البلاغية ٢ ــ القول في مذهب الوسط بين الكلام والصمت ٣ ــ الخطابة ٤ ــ الشعر ٥ ــ الاسجاع ٦ ــ نماذج من الوصايا والرسائل ٧ ــ طائفة من كلام النساك والقصاص واخبارهم ٨ ــ عرض لبعض كلام الحمقى ونوادرهم ٩ ــ اختيارات بلاغية مختلفة .

١ ــ البيان والقواعد البلاغية :

تحدث الجاحظ هنا في تعريف البيان وساق في تفصيل انواع الدلالات

(٢) المصدر نفسه ص ٥ ــ ١٤

البيانية من اللفظ والاشارة والعقد والنصبة . وعقد ابوابا لمدح اللسان والبيان وصنع موازنة بين لغة العامة والحضريين والبدويين . ونوه تنويها بصحة لغة الاعراب في عصره . وروى مقتطفات من نوادرهم واشعارهم .

وتحدث في لكنة النبط والروم . وعرض نماذج من كلام الموالي وعقد باباً للحن واخبار اللحانيين . وعرض صورا من صور العي والحصر وبسط مذهباً له في وجوب اداء القصص والنوادر كما هي ، ان معربة فمعربة ، او ملحونة فملحونة ، زاعماً ان الاعراب يفسد نوادر المولدين .

وهو لا يغفل ان يتكلم في مخارج الحروف ويبين اثر سعة الشدق واثر اكتمال الاسنان او نقصها في البيان وكذلك اثر لحم اللثة وكذا اثر سقوط الاسنان ويعقد باباً للحروف التي تدخلها اللثغة ويبين اي لثغة اشنع وايها أظرف . وهو كذلك يروي طائفة من اخبار البلغاء والخطباء والفقهاء والامراء ومن جمع بين الخطابة والشعر . ويعرض نماذج من كلام الرسول .. كما عقد باباً للفز في الجواب .

فاذا ماحاول الكلام في البلاغة ، وهي المرتبة التي فوق البيان ، ذهب يسرد تعريفها عند الفرس والروم والهند والعرب . وهو يتكلم اثناء الحديث عن البلاغة عن تنافر الحروف وائتلافها وكذلك وجوب مقتضى الحال .. وعن الايجاز والاطناب ويعين المواطن الصالحة لكل منهما . ويتكلم عن البديع ويعرض امثلة من القرآن والشعر .

ب ـ القول في مذهب الوسط بين الكلام وبين الصمت :

عقد الجاحظ باباً للصمت والحث عليه . ويحكي أقوال المعارضين لاصحاب الخطابة والبلاغة الذين يفضلون هذا الصمت . ويخصص باباً آخر لمديح اللسان واصحاب البلاغة والخطابة . ولكنه لا يرضيه هؤلاء واولئك بل يرى ان كلاً منهما قد جنح الى غير الصواب ، وان الصواب والخير كله في اصابة القدر من الكلام . وان تكون الالفاظ والمعاني أوساطاً بين بين .

ج ـ لخطابة :

وقد عني الجاحظ بهذا الفن عناية خاصة . ذلك ان المعتزلة كانوا يلجؤون الى الخطابة والجدال في تأييد امرهم ويبين ما ينبغي اتباعه في ضروب من الخطب وما تتطلبه الخطابة من الجهر بالقول وترفيع الصوت .

ويتكلم في الدمامة ومدى اثرها في قدر الخطيب والشاعر . ويتعرض للخلاف في تاثير حركة الخطيب واشارته او سكونه وهدوء جوارحه في سامعيه ويتكلم في استعمال المخاصر والعصي في الخطبة . ويذكر اسماء الخطباء وقبائلهم وانسابهم . . وهو اثناء ذلك يسرد مختارات من خطب الرسول والخلفاء الراشدين .

د ـ الشعر

يعتبر الجاحظ ان الشعر وسيلة البيان وله اوزان لابد منها . فمن جاء كلامه على وزن الشعر ولم يتعمد هو هذا الوزن فليس كلامه بشعر . وللشعراء رسوم خاصة والشعر خير الوسائل لتخليد الانتاج الفني .

هـ ـ السجع

لقد عرض الجاحظ هنا الخلاف الدائر بين العلماء حول هذا الفن . على ان من الادباء من يرى أن السجع انما كان منهياً عنه في صدر الاسلام لقرب عهدهم بالجاهلية حيث كان السجع يجري في الكهانة والترجيم بالغيب . فلما زالت العلة زال التحريم . ويسوق الجاحظ من بعد ذلك ماثورا من متخير السجع وبديعه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و ـ نماذج من الرسائل والوصايا :

لقد كانت الرسائل والوصاية مظهرا من مظاهر البيان العربي . فهو ينشر في تضاعيف كتابه قدرا صالحا مختارا منها لتكون اماماً يحتذى وقالباً يصاغ عليه القول .

ز ـ النساك والقصاص :

وللنساك حظ وافر من عناية الجاحظ في الكتاب . فهؤلاء النساك الروحيون قد نبغ منهم نوابغ في البيان . فهم قد لانت السنتهم وهم قد تصدوا لوعظ العامة والتاثير فيهم ببليغ القول . أما القصاص فقد كانت صناعتهم تقتضيهم العناية بقوة البيان وحسن الاداء وكانوا ذوي فصاحة وبلاغة .

ح ـ الثوكى والحمقى :

يعقد الجاحظ باباً للحديث عن هذا النوع من الناس . فقد يتفق لبعض

هؤلاء من البيان الساخر ومن التبيين العجيب ما يكون في الصدر المقدم من حسن التعبير والتعليل . كما يتفق لبعضهم ان يريد البيان فيخطىء خطأ ظاهرا او خفيا فيكون كلامه جديرا بأن ينبه على التحذير منه وبأن يكشف عما به من خطل كما صنع ذلك في باب العي .. ويلحق الجاحظ بهؤلاء الحمقى والنوكى طائفة خاصة من المعلمين لا يلبث ان يستثني منهم جماعة من جلة المعلمين والمؤدبين .

ط ـ اختيارات بلاغية :

والجاحظ هنا يوسع كتابه بالجيد والمتميز من النثر والشعر ولا سيما في الجزئين الثاني والثالث . فمنها مايكون شاهدا لما يبغي ان يدعمه ويؤيده من قضايا البيان ومنها مايرويه ليكون للحفظ والمذاكرة .

وقد روى طائفة من مختارات المراثي والخمريات والهجاء والمديح وما قيل في الشيب ومما حوى الحكمة والزهد واقوال الاعراب ونوادرهم ومجموعة من قصار الخطب وطوالها ومنتخب الرسائل والوصايا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ ماذا كتب وقيل عن الكتاب عربيا واجنبيا :

ليس هناك اديب نابه في العربية لم يسمع بهذا الكتاب او لم يفد منه . وقلما تجد اديبا من المحدثين لم يتمرس بما فيه من ادب ، كما كان من هذا الكتاب مادة غزيرة استمدها كبار المؤلفين القدماء في مؤلفاتهم كابن قتيبة في (عيون الأخبار) والمبرد في (الكامل) وابن عبد ربه في (العقد) والعسكري في (الصناعتين) والحصري في (زهر الآداب وجمع الجواهر) وابن رشيق في (العمدة) وعبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) .

ومما قاله القدماء في هذا الكتاب كثير ولكن نجملها بقولين واحد لابن العميد (الصاحب بن عباد) والآخر لابن خلدون(٢) .

يقول ابن العميد « ان كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والأدب ثانيا » .

يقول ابن خلدون « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه (يقصد علم الأدب) اربعة دواوين : وهي ادب الكاتب لابن

---

(٢) المصدر نفسه ص ٥ ـ ١٥ .

قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

ومما كتب عن الجاحظ وكتابه البيان والتبيين كثير يمكن أن نلخصها بما يلي :

جاء في دائرة المعارف البريطانية :

« ان كتاب البيان والتبيين الذي عنوانه بالانكليزية هو :

(Elegance of Expression and clarity of Exposition)

هو كتاب متميز يعالج الأسلوب الأدبي ويعالج الاستعمال المؤثر للغة . والجاحظ يقدم فيه ثقافة كاملة في الانسانيات التي كانت في زمنه . وهو واحد من رجال الفكر الذين يؤمنون بالذهنية (Rationalism) ... أي العقلية ، « ان خير ما يمثل النثر العباسي هو الجاحظ وذلك من خلال ملاحظاته الدقيقة للطبيعة الانسانية »(٤) .

وقد تحدث عن الجاحظ بشكل عام وكتابه (البيان والتبيين) بشكل خاص مستشرقون كثيرون نجملهم بما يلي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

Bernard lewis (1966) **The Arabs in History.**

John Saunders (1965) **A History of Medieval Islam.**

Nicholson (1930) **Aliterary History of the Arabs.**

Montgomery Watt (1962) **Islamic philosophy and Theology.**

إن كل هؤلاء المستشرقين يعترفون بحقيقة واحدة ملخصها : إن الجاحظ في موضوعاته التي تناولها في كتبه ولا سيما البيان والتبيين خرج عن نطاق الحياة الضيقة الى الحياة المتحضرة والمنفتحة ذلك لأنه ذو عقل منفتح ومثقف كبير . وهذا ما جعل اسلوبه متميزا عن غيره . ولكن اعماله ينقصها الاسلوب المرتب والمبرمج واما الموضوعات التي عالجها في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) إنما جذبت الباحثين الغربيين ولفتت انتباههم

---

(٤) دائرة المعارف البريطانية (المجلد ٥ ص ٥٠١) و (المجلد ٣ ص ٦٤٤) طبعة الولايات المتحدة ١٩٧٩ .

٤ ـ اهمية الكتاب وموقعه في حقل المعارف الحديثة :

الحقيقة ان كتاب (البيان والتبيين) كتاب مهم جدا وعلى كافة الأصعدة المعرفية الحديثة . وساكتفي بالحديث هنا عن الموضوعات التي طرقها الجاحظ والتي لها علاقة وثيقة باللسانيات لجدة هذا الحقل واهميته في الغرب المعاصر .

آ ـ تعريفه للبيان ـ اي اللغة :

الجاحظ عرف البيان بقوله « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن اي جنس كان الدليل . لأن مدار الأمر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فباي شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع » .

« وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ (الصوت) ثم الاشارة ، ثم العقد (الحساب) ثم الخط (الكتابة) ثم النصبة (الحالة الدالة) »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) « فأما الاشارة (لغة الاجسام) فباليد وبالراس وبالعين والحاجب والمنكب . ... ولولا الاشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص . قال الشاعر :

اشارت بطرف العين خيفة اهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم
فايقنت ان الطرف قد قال مرحبا ... واهلا وسهلا بالحبيب المتيم

(٢) والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التاليف ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا الا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاما الا بالتقطيع والتاليف » .

(٣) فأما الخط (الكتابة) فما ذكره الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والانعام بمنافع الكتاب قوله لنبيه عليه السلام « اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » واقسم به على نبيه المرسل حيث قال

« ن . والقلم وما يسطرون » . . وقالوا « اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن مثله للقائم الراهن » . والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان واللسان لايعدو سامعه ولايتجاوزه الى غيره » .

(٤) « واما القول في العقد وهو الحساب فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق » » .

(٥) واما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السموات والارض وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص . فالصامت ناطق من جهة الدلالة ولذلك قال الاول :

« سل الأرض فقل : من شق انهارك وغرس اشجارك وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا » . . . ومتى دل الشيء على معنى فقد اخبر عنه وإن كان صامتا . وهذا القول شائع في جميع اللغات ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات (٥) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التحليل اللساني :

في هذه النصوص التي اوردها الجاحظ الكثير من الأفكار اللسانية الحديثة فهو بهذا قد تطرق في اللسانيات الحديثة . الى ما يلي :

١ ـ اللسانيات الانتروبولوجية (علاقة اللغة باصل الاجناس وكيفية تقطيع الأجناس البشرية للواقع الذي حولها من خلال اللغة) .

٢ ـ الدلاليات (علم المعنى) انواعه ـ وظائفه ـ كيفية افرازه . . . فهناك معنى لغوي ـ معنى إشاري جسمي ـ معنى رياضي حسابي ـ معنى كتابي ـ معنى كوني .

---

(٥) الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) البيان والتبيين ج١ . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ١٩٤٨ ص ٧٥ ـ ٨٢ . دار الجيل ـ بيروت .

٣ ـ علم الاشارة او السيمولوجيا ـ الذي يبحث في بنية الاشارات ووظائفها واشكالها في الكون . وهو بذلك يشبه عالم السيميولوجيا تشارلز بيرس عندما عرف علم السيميولوجيا بقوله :

« ليس باستطاعتي ان ادرس اي شيء في هذا الكون ـ كالرياضيات والأخلاق والميتافيزياء والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية ، والبصريات، والكيمياء ، وعلم التشريح المقارن وعلم الفلك وعلم النفس وعلم الصوتيات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم والكلام والسكوت والرجال والنساء والنبيذ وعلم القياس والموازين ـ إلا على انه نظام سيميولوجي »(٦) .

النظام السيميولوجي عند الجاحظ هو ما دعاه بـ النُصبة : الحال الدالة في الكون .

٤ ـ لغة الأجسام . ذاك الحقل الذي يسمونه Body language . وهناك كتب كثيرة تحدثت عن هذا العلم واختلافه من ثقافة الى اخرى ومن امة الى اخرى . ومن هذه الكتب كتاب The Body Language لمؤلفه جوليوس فاست وكتاب Language in Behavior لمؤلفه هاول فيتر . وكتاب Non-Verbal communication لمؤلفه روبرت هندي .

٥ ـ اللسانيات الرياضية ... التي تحاول صياغة اللغة البشرية حسب النظام الرياضي من أجل برمجتها في الحاسوب ... وهذا يشبه اعتبار الجاحظ الحساب على انه نظام دلالي ... يعبر عن الكون ويعين الانسان على التفاهم .

٦ ـ الفلسفة والمنطق واللسانيات . فقد اعتبر الجاحظ ان كل شيء في الوجود ينبغي ان يسخر لخدمة الانسان .. في اتصاله مع الانسان الآخر . فهناك وسائل كثيرة لعملية الاتصال البشري ومن هذه الوسائل اللغة .

٧ ـ المتناهي واللامتناهي في المبنى والمعنى . والجاحظ عندما يعرف المعاني يتطرق الى موضوع كيفية تولد اللغة وتركيبها ذلك لان المعاني مبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية اما أسماء المعاني فهي مقصورة ومعدودة

(6) Peirce, C (1953 : P 32) **Letters to Lady Welby.** ed. I.C. Lieb. New Haven.

ومحددة ومتناهية . هذا التعريف يشبه تعريف تشومسكي للغة عندما يعتبرها مجموعة من القواعد المتناهية التي تولد معاني لامتناهية .

ب ـ الأمراض اللغوية : (Speech Disorder)

يتحدث الجاحظ هنا عن كثير من الأمراض اللغوية يمكن ان نجملها بمايلي:

« العيّ والحصر في الكلام : « اي العجز في الجواب عن شيء ما » فالناس لا يعيّرون الخَرِس ولا يلومون من استولى على بيانه العجز وهم يذمون الحصر ويؤنبون العيّ » .

« اللجلاج ـ التمتام ـ الألثغ ـ الفافاة ـ الحسبة ـ الحكة ـ الرِتة ـ ذو اللثغف » .

الحكلة = شبه العجمة لا يبيّن صاحبها الكلام .

الرِتة = العجلة في الكلام وقلة الأناة .

رجل الثف = بطيء الكلام اذا تكلم ملأ لسانه مخسة » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تكلم الجاحظ عن انواع الافواه وتركيباتها ، فهناك :

(١) الأشغى : اي اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج.

(٢) الأفلج : الشق في الشفة العليا .

(٣) الأشدق : اتساع الفم وعرضه .

(٤) الضجم والفقم : اعوجاج في الفم .

(٥) الرَّوق : ركوب السن الشفة .

(٦) الصغير : الكلام الصغير هو الذي يخرج من موضع الثنايا المنزوعة .

(٧) « قال اهل التجربة : اذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الأسنان تشمير وقِصرٌ سَمَك (التشمير = التقليص . السمك = الارتفاع) ذهبت الحروف وفسد البيان . واذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئا يقرعه ويصكه ولم يمرّ في هواء واسع المجال ، وكان لسانه يملأ جَوْبَة مخه ، لم يضرّه سقوط اسنانه الا بالمقدار المغتفر والجزء المحتمل » .

(٨) « والذي يعتري اللسان مما يمنع من البيان امور : منها اللثغة التي تعتري الصبيان الى ان ينشئوا وهو خلاف ما يعتري الشيخ الهرم الماج المسترخي الحنك ـ المرتفع اللثة وخلاف ما يعتري اصحاب اللكن من العجم ومن ينشأ من العرب مع العجم .

(٩) وتحدث الجاحظ عن لكنة البلغاء والخطباء والشعراء والرؤساء وعن لكنة العامة ومن لم يكن له حظ في المنطق » .

(١٠) وتحدث ايضا عن تنافر الحروف واقترانها مع بعضها ايضا . . .
« ولكل لغة حروف تدور في اكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين واستعمال الجرامقة للعين » .

(١١) التنافر في الحروف (مختلفة ـ متباينة ـ متنافرة ـ مستكرهة) يؤثر على عملية الشعر . « فالجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتاخير . والزاي لاتقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتاخير . . . »(٧) .

التحليل اللساني :

لقد اقترب الجاحظ في معالجته للامراض اللغوية من البحث البيولوجي للامراض اللغوية . اذ إن معالجته للثغة التي نظرا لبعض الاصوات تعد معالجة علمية . فاللثغة عند الجاحظ تحدث في السين والقاف واللام والراء :

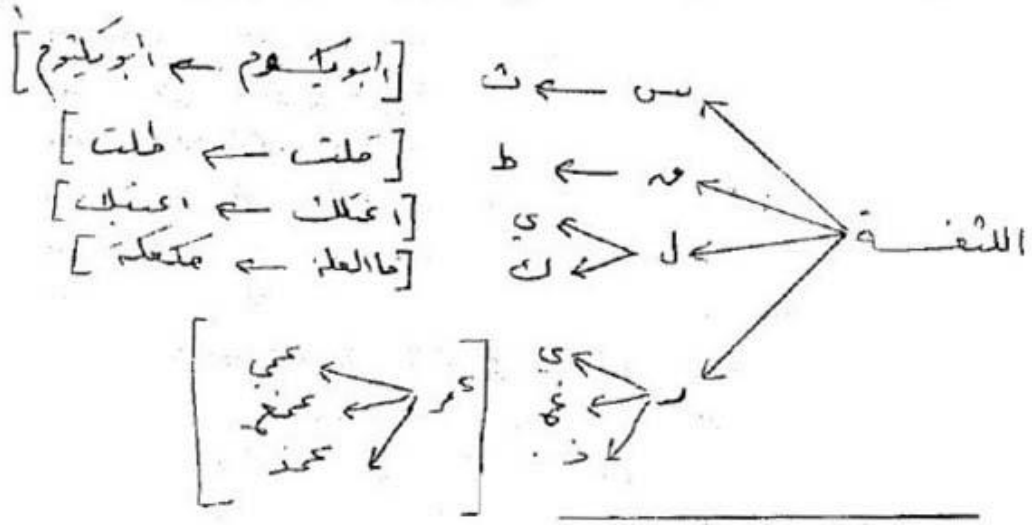

(٧) المصدر نفسه ص ٣٤ ـ ٧٤ .

وكذلك بحث الجاحظ في التبدلات الصوتية للغة العربية عند الاعاجم بمـا يلي :

١ ـ ج ← ز (حجل ← زمل) السندي
٢ ـ ش ← س (شر ← سر) السندي والرومي
٣ ـ ز ← س (زورق ← سورق) النبطي .
٤ ـ ح ← هـ (حمار ← همار) الرومي .
٥ ـ ع ← د (ناعمة ← نائمة) الرومي والنبطي

وقد بحث في ظاهرة الأمراض اللغوية لسانيون غربيون كثيرون أمثال :

ايريك لينبرغ في كتابه

Biological Foundations of Language.

(الأسس البيولوجية للغة)

وجورج ميللر في كتابه

Psychology and Biology of Language and Thought

علم النفس وبيولوجية اللغة والفكر .

وإد وارد ولكار في كتابه

Explorations in the Biology of Language

اكتشافات في بيولوجية اللغة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فكل هؤلاء بحثوا في الظاهرة المرضية للغة .. ووصفوها وصفا دقيقا كما فعل الجاحظ الذي وصف الأمراض اللغوية وذكر بعض العلاجات الطبيعية لها .

جـ ـ ظاهرة الصمت :

تحدث الجاحظ عن ظاهرة الصمت التي هي احدث ظاهرة في اللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistics) او تحليل الخطاب (Discourse Analysis) فقد عقد بابا للصمت والحث عليه . فهو يحكي اقوال المعارضين لأصحاب الخطابة والبلاغة الذين يفضلون هذا الصمت .

(١) « من لم يحسن ان يسكت لم يحسن ان يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول » .

(٢) ويعد الجاحظ السكوت والصمت في موضعه مرتبة من مراتب البلاغة العربية .

قال أبو العتاهية :

والصمتُ أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه
كل امرىء في نفسه ... أعلى وأشرف من قرينه

(٣) قال لقمان لابنه : اي بنيَّ : إني قد ندمتُ على الكلام ولم اندم على السكوت .

(٤) وقال الشاعر : ما ان ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا(٨) .

إن الحديث عن الصمت ووظائفه يشبه الحديث عنه في تحليل الخطاب ذلك لأن اللسانيين الاجتماعيين قد التفتوا اليه وبحثوا فيه وقد قدم بحثا عن « الصمت ووظائفه » الدكتور سعد جمال (من جامعة القاهرة) في المؤتمر الخامس للسانيات التطبيقية الذي اقامته جامعة اليرموك في اربد عام ١٩٨٦ . وقد اعتمد في ذلك على كتاب : Silence : its Structures and Functions

الصمت : بنيته ووظائفه لمؤلفته ديبورا تانن التي كانت تشبه في معالجتها للصمت الجاحظ وتناوله لهذه الظاهرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د ـ ظاهرة التعابير الاصطلاحية :

بحث الجاحظ في هذه الظاهرة التي تقول بأن التعبير الاصطلاحي ينبغي أن يروى كما هو دون اي تطبيق للقواعد التحويلية عليه من حذف وإبدال وتغيير وتقديم وتأخير . ذلك لأن اي تطبيق من هذا النوع على التعبير الاصطلاحي سيفقده معناه .

« ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب فاياك أن تحكيها إلا مع اعرابها ومخارج الفاظها فانك إن غيرتها بان تلحق في اعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير .

(٨) المصدر نفسه ص ١٦٤ ـ ٢٠٨ .

وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فاياك وان تستعمل فيها الاعراب او تتخير لها لفظا حسنا او تجعل لها من فيك مخرجا سريا . فان ذلك يفسد الامتاع بها وينخرجها من صورتها . ومن الذي اريدت له ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها(٩) .

وهذا يشبه تماما ما يطبقه تشومسكي على المصطلحات والتعابير الاصطلاحية ذلك لانه يقول لا يمكن ان نغيّر فيها او نبدّل او نحذف بل ينبغي ان تروى كما هي . وقد جعل لها حالة خاصة في نظريته التوليدية والتحويلية ولاسيما في كتابه : — Government and Binding —

نظرية العامل والربط الاحالي .

٥ ـ الصفات التي تميز بها المؤلف من خلال كتاب « البيان والتبيين » :

احب ان اقول بانه لا يمكن لهذا الكتاب ان يغني عنه كتاب آخر وذلك لان مؤلفه يتسم بما يلي :

(١) يمتاز الجاحظ عن غيره من كتاب التاريخ انه كتب للخاصة والعامة . وهذا جعله يمتاز بالتندر والدعابة والشخصية المرحة ـ الفكهة . ونحن ندعو هذه الكتابات للخاصة والعامة بالكتابات التي تجمع بين الفكر المنهجي التحليلي المعتمد على الحقائق المبنية على اسس منطقية واضحة تتسم بها الكتابات الخاصة وبين الفكر العفوي الامي الذي يعتمد على الحقائق التي تعتمد على التجربة الشخصية الغنية التي تتميز بها الكتابات العامة.

(٢) يمتاز فكر الجاحظ بالاستطراد تلك الصفة التي اعدها انا شخصيا صفة ايجابية لا سلبية كما يذهب الى ذلك المستشرقون والباحثون العرب المعاصرون . إن الاستطراد في كتاب « البيان والتبيين » هو نوع من البراهين والحجج المتنوعة والكثيرة التي يسوقها لتأييد الفكرة الرئيسية. لذلك نراه يجمع شتى الوان الحجج التي تنتمي الى الخاصة والعامة . . . الى الفكر التحليلي والى الفكر العفوي المبني على التجربة .

(٣) يمتاز فكر الجاحظ بالفنى الطويل والعريض وكثرة التاليف إذ ترك الرجل نيفا ومائة وسبعين كتابا . . . وهذا شيء متميز في العصور الوسطى .

---

(٩) المصدر السابق نفسه ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٤) يمتاز الجاحظ بأنه كان يجمع بين العلم (العلوم الدقيقة الصارمة) وبين الأدب او الانسانيات (العلوم الانسانية) .

وهذا اعطى موضوعه صفة الكلية في الرؤية للظاهرة المدروسة .

(٥) يمتاز فكر الجاحظ انه ربط بين حقول المعرفة التي تحدث عنها وبين الفلسفة فكل علم من العلوم لا يمكن أن يتم ويأخذ أبعاده الكاملة ويتبلور بشكل جيد الا اذا استند الى منهج فلسفي يشحذه ويغني براهنيه وحججه وفرضياته . وهذا ما فعله الجاحظ بالضبط .

(٦) واخيرا فان الجاحظ يعرف اسلوب التحليل العلمي للظواهر البشرية . فهو في كل هذا جعل الباب مفتوحا للنقاش والتطور حول الظواهر المدروسة لان رايه فيها ليس رايا قاطعا ملزما ذلك لانه ليس هناك حسم للحقائق العلمية وإنما هناك ترجيح و في الصحة .

لذلك نراه يقول في خاتمة تحليله للبيان والتبيين :

« وهذا ـ ابقاك الله ـ آخر ما الفناه من كتاب البيان والتبيين ونرجو ان نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته واردناه من تاليفه فان وقع على الحال التي اردنا وبالمنزلة التي املنا ، فذلك بتوفيق الله وحسن تاييده ، وإن وقع بخلافها فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق . والله سبحانه وتعالى اعلم »(١٠) .

(١٠) المصدر نفسه ج٤ ص ١٠١ .